عبد العال الحمامصي

# قابيل يخنق القمر

بالامس كان القمر مختنقا في سماء مدينتنا . من فوق اسطح البيوت ، في الدروب الضيقة والازقة المعتمة ، انطلقت مواكب الاطفال تقرع فوق الصفائح القديمة ، تناشد بنات الحور ان يطلقن سراح القمر . ولكنه ظل مخنوقا برغم الصفائح وضراعة الصغار ، كصلوات بدائية لاله مات قلبه .

وتذكرتك . تذكرت سخريتك من جدتنا ، ومن المقدس دانيال شماس كنيسة السيدة دميانة ، المجاورة لبيتنا . تذكرتك وكتاب الجغرافيا بيدك تفسر لنا ظاهرة كسوف القمر ، وجدتي تشتمك في حب وتلعن المدارس التي تلقنك هذا الكفر وتعلمك الكتابة من الشمال لليمين في آخر الزمن . كان رأيها ان بنات الحور هن اللواتي يخنقن القمر ، لانهن عاشقات له وهو يتأبى عليهن ، لانه هو الآخر قد اعطى قلبه لابيه ملك الشمس . اما المقدس دانيال فقد كان له رأي آخر . كان يؤكد لنا بان قابيل هو الذي يخنق القمر انتقاما منه لانه اضاء الصحراء ذات ليلة وكشف جثة هابيل لعيون الغربان التي نعقت وانقضت تنهش فيها ، وبذلك ايقظت الملائكة فوشت به لآدم .

تذكرت هذا ونمت . في نومي رأيت حلماً . رأيت يدك تطبق على عنق القمر . لم ارَ وجهك . كان مختفيا وراء سحب داكنة . ولكنني اعرف يدك . اصابعها . عروقها . والوشم فوق الكف . اعرفها تماما . يدك .

ماتت جدتك منذ اسابيع . قال الدراويش بان جثتها طارت بالنعش من فوق اكتاف المشيعين . لم استطع تكذيب الخبر لاني لم اسر خلف جنازتها . تخلفت افتش في حاجياتها . واستبحت لنفسي مسبحتها اليسر ذات الرائحة التي تشبه الكافور وتراب المقابر واضرحة آل البيت . وخرجت والمسبحة في يدي اطرق باب بيت المقدس دانيال ، اعب مجانا من خمره المعتقة التي يجلبها له صديقه المبشر الامريكي من كروم يافا والجليل . منذ ساعة عدت من بيت دانيال وما زالت ابخرة العرق في عروقي ووهجه في دماغي . بينما تجرفني مشاعر تواقة بشغف الى لحظات بجوارك ، لافرغ لك كل الاشياء التي تلهث في داخلي . كما كنت

افعل في الماضي، عندما كنا نعيش في كنف اسرة ميسورة متماسكة. ابي، وامي، وسارة، والجدة، والضيوف الذين كان يصطخب دائما بهم بيتنا الكبير العتيق، بطوابقه وحجراته ودهاليزه . لم يعد الآن يطرق بابنا احد . فمنذ سنوات والمرحوم والدنا لم يعد هو العمدة. بعد افلاسه مباشرة جاء المأمور ومعاون البوليس والمشايخ ، ونقلوا التلفون الى بيت العمدة الجديد في مشهد اشبه بالفضيحة .

زمان ، كانت مواكب الحكام ورجال الدين تتجه الى بيتنا وتفترش الساحة تحت اغصان شجرة التوت العجوز . الشجرة ما زالت تعيش ، وان كانت ثمارها لم يعد لها مذاق الربيع . وبرغم هذا ما زالت راسخة تسخر من مياه الفيضان التي تلطم ساقها في عناد .

كنت اعشق النهر ، حيث كنت تجذبني عاريا لتعلمني السباحة داخله . وغرقت منك مرة ، وعندما انتشلني الصائد العجوز قلت لي بعد ان افرغ المياه في جوفي ، وعاد لقلبي نبضه ، بانني لو كنت ضعت منك في اعماق النهر لاشاع الناس الاقاويل ، وتكرر اللغو حول قابيل وهابيل. ولم افهم ما تعنيه . كنت اعرف الحكاية بالطبع ، ولكني لم افهم صلتها بحادث غرقي .

نسيت انا هذا الحادث تماما ، لولا ان ذكرني به الصائد العجوز .رأيته منذ شهور ، يتسول على قارعة الطريق متدثرا باطمار رثة ، وقد فقد بصره الرؤية. وافرغت في كفه كل ما كان في جيبي . وعرفني عندما تحسس يدي ، ثم افضى اليّ بالسر . قال لي بانك كنت تستطيع ان تنقذني قبل ان تبتلعني المياه . ولكنك تركتني اغوص بدون ان تفعل شيئا . لولا ان جاء هو بقاربه في اللحظة المناسبة . وعدت الى البيت . وفي الليل رأيت حلما . رأيتك بجوار فراشي ، يدك فوق رأسي ، وقد اصبحت لك لحية كثة ، وتلبس قفطانا فوق البنطلون . هكذا رأيتك ، صدقني . وقد طفقت تقرأ لي قصة قابيل وهابيل في نسخة مذهبة من توراة قديمة .

وبعد ان فرغت من القراءة طلبت مني الا اصدق الحكاية . المسألة بحذافيرها مجرد خرافة . ليس هناك قابيل ولا هابيل . لان آدم لم ينجب اطلاقا . كان عقيما . وان هيروديت اليوناني قد اخترع الحكاية من خياله !

وصحوت بعد كلماتك مباشرة . كان حلما . انت في القاهرة وانا في الصعيد . اتذكر يوم جئتك في القاهرة ؟ لم استطع ان اغلق قلبي دون توسلات سارة . من المستحيل ان تقتلع رياح الزمن ذكرى هذا اليوم من نفسي . استقبلتني بفتور . سألتني زوجتك القاهرية قبل ان تقدم لي الخادمة فنجان القهوة عن الفندق الذي نزلت فيه . وابتلعت ريقي

اجيبها باني سأنام في رحاب الحسين ، فعجائز بلدتي حملوني امانة قراءة الفاتحة في مقامه . ونظرت اليك لارى وقع سؤالها . لم المح اي تعبير يشي بالدهشة . فاجتاحني الاحساس باني دخيل . ونهضت بدون ان اتحدث اليك في مسألة سارة . لكم تمنيت يومها كلمة منك تدعوني للبقاء . ولبثت اسير في شوارع القاهرة مذهولا ضائعا . سألت رجلا عن الطريق الى المحطة فقد فقدت قدماي الطريق . وتفرسني الرجل طويلا . كانت ترافقه فتاة بيضاء مذبوح قلبها في عينيها . وامسك بيدي وقبضته الاخرى على رسغ الفتاة ، وسار بي داخل دروب متعرجة . وفي زقاق دامس الظلام شهر سكينا في وجهي ، واغتصب كل ما كان في جيبي . ناشدته الفتاة ان يترك لي ثمن التذكرة . فلطمها على وجهها ، فركعت تحت قدميه تناشده ان يبقي لي اجر العودة ، وفي مقابل ذلك تتنازل عن حصتها من عملية الليلة . فاعطاني ثمن التذكرة بالتمام ، وانطلق بالفتاة وتركني . واندفعت اجري ملتاثا مهبولا . وعندما قابلت رجل الشرطة ارتميت عليه اخبره بحكايتي . فانطلق يقهقه في جنون . سألني ان كنت من الصعيد . وعندما اجبته زادت عربدة قهقهاته . « قريب لك اشترى الترام من قبل ! » ثم ابتعد عني ، وغاب في زحام الميدان .

تساءلت يومها ، وانا اتجه الى المحطة بارشاد بائعة الخبز الصغيرة ، ما الذي جعل ابراهيم هكذا . فرغم انني كرهتك بضراوة لم اكن مستريحا لقرار ضميري بادانتك . كثيرا ما فكرت بان كل مخلوق له الحق في ان يتصرف بما يروقه . ومن الحمق ان ندين احدا بشيء خارج ذاته . لكل انسان حياته وله مطلق الحرية في ان يحدف لسفينتها في الاتجاه الذي يعتقد انه الصحيح . وان الآخرين الذين يحملون هموم الانسانية فوق كواهلهم نماذج شاذة حكم عليها بان تحمل الصخرة تكفيرا عن خطيئة ازلية لا تعرفها . هذا قدرها ، المفروض من داخلها .

وعدت لاتزوج سارة . اجهضت لها القابلة الجنين برغمها . كانت تتمنى ان يبقى لها ، فقد نسجته من صلبك . وحاولت ان ابث في قلبها الكراهية لك . وفشلت . ولم استطع انا كراهيتها . دائما دافئة وحلوة . في قلبها نبع من الحنان لا يجف ابدا ، لا يغيض ابدا . احيانا يلوح لي بان هذا النبع وجد ليروي الآف الرجال . بل الآف الاجيال الى ان تنتهي الدنيا ومن عليها . ولكنك ما زلت تعيش في دمها . انها تدخلني اغوار انوثتها . ولكنها دائما تلفظني الى السطح كلما حاولت النفاذ الى روحها .

قالت لي منذ ايام انها لا تصدق انك شرير الى هذا المدى . كنت ساعتها احدثها عنك ، واتساءل عن السبب الذي جعلك شريرا برغم انك لم تهزم من احد وليس العالم مدينا لك باية صفعة . قالت لي ان الغائب حجته معه . واعطتني ظهرها ، ونامت . في

الصباح سألتني لماذا ابيت ان افضحك ما دمت اكرهك الى هذا الحد ؟ ولم استطع الاجابة . نظرت اليها ببلاهة وخرجت . لم استطع الاجابة حتى بيني وبين نفسي . انا انسان يفتقد القدرة على فهم نفسه . عندما كنت صغيرا تقرأ لي انت قصصا يتعذب ابطالها ، كنت ابكي من اجل هؤلاء الابطال . وكنت اعدهم في ضميري ان اكون عندما اكبر مسيحا جديدا ينتقم لكل تعاسات الازمنة . ومرات كثيرة عندما كنت اواجه ضراوة الناس ، كنت اجد نفسي وقد نفث فيها الاشمئزاز الكراهية لكل شيء . واتمنى ان تتاح لي الفرصة لانسف العالم كله واذروه هشيما. عندما قلت هذا لسارة في المساء ، قالت لي بانني انسان غريب لا يمكن ان يفهم بسهولة .

منذ شهور ، مات والدك منتحرا . خسر كل ثروته كما تعلم منذ اعوام . وعرفناعذاب الاحساس باننا اصحاب نعمة زائلة . اعزاء قوم دهمهم الاذلال . ولم تعد مندرتنا مليئة بالضيوف من كل فج عميق . لم يعد يطرق بابنا من الغرباء غير المحضرين . مات تاجر القطن المفلس دون ان يعرف سر خرابه . انت تعرف ، وانا . اعرف تآمرك مع سماسرة البورصة نظير عمولة ضخمة . فكرت يومها ، امام رهبة الحادث ومضاعفاته النفسية ، فكرت في ان افضحك للجميع، ان اوقفك عاريا وارجعك. لم استطع . رفضت الفكرة، وانا اتعذب باحساس سجين يعرف ان القضية التي يتعذب من اجلها زائفة . كان الصمت يمزقني من الداخل فلا اجد خلاصا غير ان اطرق باب دانيال ليفرغ في جوفي كؤوس العرق. وعندما تنفذ الخمر داخل دماغه ينطلق يهذي بكلام عن المسيح ويهوذا ، ثم يترنم بمقاطع من المزامير ، ويثرثر بكلام غريب عن شجرة التين التي اورقت ، وعن قارورة العطر التي دهنت بها الخاطئة قدم الانسان الذي طوب المساكين بالروح وساقه التجار في موكب الحقد نحو الصليب، وعن المطران الذي رسم سمعان النجار قسيسا لكنيسةالعذراء نظير ثلاثة خرفان وعشرة ديوك ، وتجاهله وهو خادم الكنيسة القديم . وفي النهاية تطل الكآبة البلهاء من عينيه ويتثاءب ، ثم يقذف بي خارج بيته لاجد سارة في انتظاري . سارة ، انها صليبي . هي الاخرى مصلوبة بشيء ما في روحها . انها تعطي نفسها بحنان انثى تذوب في جسدي . ربما في جسد الانسانية كلها كما يلوح لي . ولكنها غريبة عني . دائما اشعر بها هاربة مني ، روح سارة .

احيانا تقول لي بانها تكرهك الى حد الموت . واعرف انها كاذبة . انها مستعدة ان يقطع جسدها اربا في سبيل ان تراك مرة . ان يهصرها ذراعك . ان يمتصها فمك . ان تشربها مسامك . وكثيرا ما يخطر لي ان اخنقها . لا يعن لي هذا بدافع الخمر التي اكرعها

في بيت دانيال . فحتى عندما اكون واعيا يخطر لي هـذا . لاريحها وارتاح . عذاباتها ايضا تمزقني .

عندما مات والدك ، قالت لي امك ان كل شيء يموت ، ولكن الحياة تتولد من جثة الموت : فلا شيء يموت ابدا . فهمت انها تحرضني على ان انجب من سارة . قلت لهـا بان قابيل لم يقتل هابيل فحسب : قتل العائلة كلها . حتى نسلها في الغيب . كان في خاطري ان سارة لم تتقبل احشاؤهـا بذوري . شجر الارز لا ينمو في خط الاستواء . وفهمت امك ما اعنيه ، ولم تقل شيئا . ليست خمر دانيـال هي التي تحرضني على هذه الثرثرة . زمان ، عندما كنت اسمع الحواديت الخرافية التي تسردها عليّ جدتك والمقدس دانيال، عندما كنت تأخذني الى سينما البلدية في المدينة المجاورة لأشاهد افلام طرزان ، كانت تنمو في داخلي اشياء غريبة . كنت احلم بعالم لا ناس فيه . انا وحدي فيه لا غـير . كنت اخرج من حصص الدين لاهـرع الى المقابر . اتأمل الخليقة والعالم وقصة وجودنا على هذه الارض . وكنت ارتبـك احيانا واتوه . وبعدها احاول ان اقنـع نفسي بان الوجود والمدرسة واسرتنا ومحالج القطن وقباب الكنائس ومآذن المساجد اشياء لا وجود لها في الحقيقة . لا وجود لغيري انا . وعندما اموت ، تموت كل الاشياء معي . وربما لا اموت : فربما انا الخليقة ، انا العالم . من يدري ، ربما اكون الاله ذاته ! قلت هذا لسارة بالامس ، فامتدت يدهـا تجس جبهتي . ثم قالت لي : « انت مريض . قلبك يختنق . قم معي الى السطح لتشم الهواء » .

وجدنا الظـلام دامسا فوق سطح بيتنا . لم نجـد القمر في السماء ، وانطلقت نظرات سارة تبحث عنه خلف السحب ، وهي تقول لي : « مضى يوم بدون ان يظهر القمر . يوم كأنه عمر الحياة ذاتها . بنات الحـور ما زلن يخنقنه » . اجبتها : « ربما »، ثم تذكرت دانيال ، فاستدركت : « ربما لسن بنات الحور . وربما يكون قابيل هو الذي يخنقه » . ثم طلبت منها ان توقد شمعة ريثما يعود القمر.